إنتاج الخطاب الإقناعي بمراعاة أحوال المخاطَب

د. ابن فريحة الجيلالي
قسم اللغة العربية وآدابها، معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي ـ تيسمسيلت ـ

مقدمة:

إن اللغة كنز وضعته ممارسة الكلام عند الأفراد الذين ينتمون إلى بيئة واحدة، إذ لا وجود للّغة بصورة كاملة إلا ضمن المجموعة، وهي في استعمالها اليومي وسيلة يتوسّلها الإنسان لإتمام عملية تواصله مع الآخرين، بحيث تكون نوعية هذه اللغة على قدر منزلة المخاطَب، ولهذا فاختيار الألفاظ يساعد المتلقي في فهم المرسلة الكلامية، وكذلك التحديد في معاني الكلمات وإعطائها الدلالة المناسبة.

واللغة في شكلها المنطوق أو المكتوب بالنسبة للمتكلم معايير تراعى، وميدان حركة إذ هي وسيلة حياته في المجتمع، وباعتبار الكلام حركة فاللغة نظام لهذه الحركة[1]؛ فداخل هذا النظام يمكن للمتكلم أو المرسِل أن يبدع في اللغة ضمن القوانين والقواعد التي تحكم هذا النظام، ومن ثم يصبح المرسِل صاحب إبداع[*]، حيث « يمتلك القدرة على نقل أفكاره في أشكال وطرق متنوعة، وعليه فإن الخاصية اللغوية يمكن أن تثير انفعالات متعددة ومتميزة تبعا للسياق الذي ترِدُ فيه، وينتُج عن ذلك أن نفس الانفعال يمكن أن نثيره بوسائل أسلوبية متعددة. وهكذا يكون تركيب الأسلوب وما ينتج عنه من أثر انفعالي مطابقا لخاصية الدوال والمدلولات في الدراسة اللغوية، وبهذا تمتلك الأسلوبية سُبلها الخاصة بها مثلما للُغة الخطاب هذه السبل الخاصة بها أيضا»[2].

فعمل المرسِل يستند إلى وجود مصدر يأخذ منه معانيه وأفكاره والصفات اللازمة للتعابير المختلفة، وهو المجتمع الذي يعيش فيه يحوي مجموعة من التقاليد، والعادات الاجتماعية، وله مستواه المعين سواء في الثقافة والعقائد والفكر. وهذا ما يجعل الإنسان يتأثر بخبرته الاجتماعية، وهو ما يعرف بالتعلم أو الخبرة المكتسبة، كما أن الأفكار والمعلومات والمعاني لديه تتأثر بشخصيته المتمثلة في مكوناته الخاصة وميولاته وقيمه وحاجاته وانفعالاته. وهذا ما يدفعنا إلى معرفة خصوصية المخاطَب وأصنافه؛ لأن مراعاة اللغة التي يخاطَب بها المخاطَب ولغة الخطاب: وهو الطرف الثاني في عملية التواصل تربط بينه وبين مرسل الرسالة اللغوية، وعملية الاتصال تتضمن جانبي الإرسال والاستقبال، فالأول يتضمن الحديث، والكتابة؛ أما الثاني (الاستقبال) فينظر إليه عادة على أنه من عمل حاستي البصر والسّمع، ولذلك فهو مبني على القراءة والاستماع لأجل الفهم. حيث يقترن هذا الفهم برسالة مرئية أو مسموعة[3].

كما أن للحواس الأخرى دورا في استقال الرسالة كالشم والذوق واللمس حيث يختار المستقبل المعلومات التي يحاول تفسيرها وإعطاء المعاني والدلالات المناسبة لها، فهذه العمليات الإدراكية وما يؤثر فيها من التعلم وعناصر الشخصية يقوم بتحديد ما يفهمه وما يتم قبوله من طرف المتلقي، وعلى هذا يقوم بالتصرف والسلوك [4].

ويتبين من خلال عملية الاتصال اللغوي أن دور المتلقي هو تحويل المبنى إلى معنى، أي أن الغاية من عملية الاتصال اللغوي هي نقل المعنى من الجهاز العصبي المركز لدى المتكلم إلى نظيره المتلقي، وما المبنى إلاّ وسيلة لتلك الغاية، لأن المعنى هو المهّم، وهو الغاية من عملية الاتصال[5].

ولهذا فاختيار الألفاظ يساعد المتلقي في فهم المرسلة الكلامية، وكذلك التحديد في معاني الكلمات وإعطائها الدلالة المناسبة إذ « الدلالة على الشيء لا محالة إعلامك السامع إياه، وليس بالدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا عليه، وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده؛ فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو؟ أهو يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟ فإن قيل إن المقصود إعلامه السامع وجود المعنى من المخبر عنه، فإذا قال: ضرب زيد كان مقصوده أن يعلم السامع وجود الضرب من زيد وليس الإثبات إلا إعلامه السامع وجود

المعنى»[6]، وهذا المفهوم تقتضيه طبيعة الرسالة إذ كان التأكيد على وجود المتكلم أو على وجود المتلقي.

فإذا اندفع المتكلم في الكلام مخبرا لزم أن « يكون قصده في حكمه بالمسند إليه في خبره ذاك إفادته للمخاطب متعاطيا مناطها بقدر الافتقار، فإذا الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقي إليه ليحضر طرفها عنده ويتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتقاء كفى ذلك الانتفاش حكمه ويتمكن لمصادفته إياه»[7]؛ فعمل المرسِل يستند إلى وجود مصدر يأخذ منه معانيه وأفكاره والصفات اللازمة للتعابير المختلفة، وهو المجتمع الذي يعيش فيه يحوي مجموعة من التقاليد، والعادات الاجتماعية، وله مستواه المعين سواء في الثقافة والعقائد والفكر.

وهذا ما يجعل الإنسان يتأثر بخبرته الاجتماعية، وهو ما يعرف بالتعلم أو الخبرة المكتسبة، كما أن الأفكار والمعلومات والمعاني لديه تتأثر بشخصيته المتمثلة في مكوناته الخاصة وميولاته وقيمه وحاجاته وانفعالاته. وهاته المقومات التي يكتسبها لها تأثير على ما لديه من أفكار ومعان، وكل هذه العوامل تتأثر وتؤثر في معالجة الباث للأفكار من خلال العمليات العقلية والمعرفية مثل: التقييم، الحكم، الحذف، والربط ...الخ.[8]

وحتى يكون المتلقي على دراية بفحوى الرسالة " يشترط فيه إتقان اللغة، أو الشفرة المستعملة من طرف المرسل، كان المضمون منطوقا أو مكتوبا، مسموعا أو مقروءًا. فلا يجب أن يتعدى الضجيج أو عدم وضوح الرموز الحد الذي يصعب معه التقاط هذه الرموز وإدراكها من طرف المتلقي. مثل حدوث عملية التواصل في قسم غير منضبط تعمه الفوضى، أو عند قراءة كتابة بخط غير واضح، وبصفة عامة « يمكن أن نذكر من شروط التواصل ما يلي:

- أولا: إشراك المرسل والمتلقي في نفس الموقف التواصلي.
- ثانيا: اشتراكهما في نفس التجارب اللسانية أو الرمزية.
- ثالثا: اشتراكهما في الموقف الوجداني، أو بعبارة أوضح اهتمامهما بمضمون الإرسالية.
- رابعا: توفر الحد الأدنى في وضوح قناة التواصل.
- خامسا: توفرهما على قدرة لسانية وأداء كلامي يسمح لهما بالترميز وفك الرموز» [9].

وكل هذه الشروط تقتضي خبرة المجتمع المتواجدة عند الطرفين (المرسل والمرسل إليه) والتوافق بين الترابط الدلالي والترابط الصوتي.

إن التلقي يتطلب السمع[*] الذي جبل عليه الإنسان في تعلم اللغة ونجد ذلك عند ابن خلدون عندما قال: «والسمع أبو الملكات اللسانية»[10]؛ لأنه يساهم في تحقيق العملية التواصلية ويجعل عملية التخاطب ناجحة، فمثلا « لغة التخاطب في العاميات المعاصرة، انظر كيف يتعلمها الطفل؟ إنه لا نشرح لهذا الطفل أي قاعدة من قواعد هذه العاميات، ولكن الذي يحدث هو أننا نتكلم، والطفل يحاكي ويقلد، حتى إذا أخطأ لا يجد من حوله يشرحون له القاعدة، وإنما يكررون الصواب أمامه ... وهكذا، وعن هذا الطريق وحده، يلم الطفل بتراكيب العامية ومعانيها، حفظا وفهما، ويهضم كل ذلك، ثم يقيس عليه، ويكتمل نضج لغة الخطاب لديه في وقت قصير، دون أن يعلم شيئا عن قواعدها وقوانينها وضوابطها» [11]. فبقدر ما كان التكرار أكثر كان للسمع أو بالأحرى الاستماع أثر في النفوس ولذلك يستجيب الطفل لمعطيات الآخرين وبالأحرى أفراد أسرته حيث التفاعل الاجتماعي يلعب دورا هاما في عملية الاتصال.

فالاستماع مهارة ضرورية يتم اكتسابها وتعلّمها وتحسينها من خلال الممارسات العلمية، فالشخص الذي يمتلك قدرة عالية على الاستماع هو شخص ناجح في تواصله مع الآخرين إذ إن الاستماع الجيد يزيد من الفهم وتحديد المعاني الملائمة، وهو سر نجاح الكثير من أنواع الاتصال في حياتنا اليومية كالمحادثات والمقابلات والاجتماعات والمحاضرات وفي مختلف مجالات الحياة[12].

واهتم القدماء من المسلمين بدراسة الإرسال والتلقي إذ كانت هذه الدراسة « ذات طابع معياري بارز، فهي تنصرف مباشرة إلى الأثر، فلا يتعلق الأمر عندهم بدراسة وصفية تهتم بالعملية في شروطها الموضوعية أو التاريخية ، بل يهتمون بالأثر الآني الذي تتركه الرسالة، أو ينبغي أن تتركه، وكيف يكون الخطاب ناجعا، ومن ثم تصبح البلاغة سلطة أمام النص، وتُوقِع الشعري في شرك الوظيفة الخطابية، أي الإقناع في كل حالة بالوسائل الاحتمالية المتاحة، ومن هنا يكون الحديث عن المرسِل حديثا عن المتلقي في نفس الوقت، أو هو في الحالتين مظهر لشيء واحد »[13].

إن التوجيه الرباني في القرآن له ميزة خاصة وسمة متفرّدة تجاه المتلقي إذ يتجلى في مخاطبة الأنبياء – عليهم السلام – للأقوام التي تحيد عن الإيمان، بأسلوب وطريقة تخاطب تحمل المتلقي على الإنصات، لحضور الحاجة العقلية بقوة، ووضوح البينة، القصية التي لا تبرح الذاكرة، فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَقالَ رَجُل مِنَ آل فِرعَون يَكتُم إيمَانه أَتَقتُلونَ رَجُلا أن يَقولَ ربيَ الله وقَد جَاءَكم بالبَيِّنَاتِ مِن رَّبكم فإن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيه كَذبه وإن يَكُ صَادقا يُصِبكُمْ بَعضُ الذي يَعِدكُم إنَّ الله لا يَهدِي مَن هُوَ مُسرفُ ٌ كَذَّابُ ٌ﴾ [14]، فما يدعو إلى النظر في هذه الآية أن فيها توجيها خاصا نحو المتلقي والمتعلق بالإقناع والتأثير والحوار والدليل البياني. إذ فيه لطف في استمالة المتلقي، على الرغم من وجود الحجة الواضحة التي يضعها النص أمام المتلقي.[15]

وقال عز وجلّ: ﴿ وَسِيقَ الذِينَ اتقَوا ربّهم إلى الجَنّةِ زُمَراً حَتّى إذَا جَاءُوهَا وفُتِّحَتَ اَبْوابُهَا ﴾ [16]، يلاحظ أن حذف الجواب وضع المتلقي في أقصى حالات الترقب والانتظار وهذا الترقب قائم على موحيات لفظة (الجنة)، أبوابها ورياضها وثواب العابدين الذين يدخلون جماعات ليتلقوا وعد الله لهم بالخلود ... لقد شحذ النص القرآني خيال المتلقي وأيقظ ذهنه، ليتواصل مع النص ويدرك مغزى الجواب المحذوف، وإنما يحذف الجواب في مثل هذه الأدوات المقتضية الجواب لقصد المبالغة، لأن السامع يترك مع أقصى تخيله بتقديره أشياء لا يحيط بها الوصف »[17] فقد جاء النص القرآني معجزا لكل بارع في تصوير الأشياء وحاذقا لكل فصيح الألفاظ لاستجلاء المعاني، لما فيه من تصوير فني رفيع يفوق مقدرة الإنسان ولكنه في المقابل يترك السامع له يستجيب لمقتضيات هذا الكلام ويوقع في النفس الأثر البالغ.

وفي الجانب الإبداعي فمن المعروف وجود متلقي في عملية الإبداع، فالمبدع يعطي تلوينا خاصا لأسلوبه حسب طبيعة التلقي، وهذه الطبيعة«حاضرة حضورا بينا في العملية الإبداعية، وهذا راجع - بلا شك – إلى أن المبدع يحاول بقدر ما أوتي من مقدرة بيانية أن ينقل المتلقي إلى الحالة التي يعايشها، أو بمعنى آخر يحاول أن ينقله إلى نفس التجربة التي دفعته إلى هذا الإبداع. ويتجه الدارسون إلى الأسلوب باعتباره قوة ضاغطة يسلطها المتكلم على المخاطب، بحيث يسلبه حرية التصرف إزاء هذه القوة فكأن الأسلوب أصبح بمثابة قائد لفظي للمتلقي. هذه القوة الضاغطة تتمثل فيها عملية الإقناع بوسائلها العقلية التي من خلالها يسلم المتلقي قيادة للفكرة الموجهة إليه، كما تتمثل فيها عملية الإمتاع التي تلون الكلام بكثير من المواصفات العاطفية الوجدانية»[18] ومن ثمّ فالمتلقي يكون هو المستجيب للنصّ، كما أن هناك مصطلحات أخرى تطلق عليه، الفاهم، المتقبل، ... تنتج عنها مصطلحات أخرى في الدراسات الأدبية الحديثة تنحصر في أربعة أساسية وما بقي منها فهو مرادف لها، وهي:

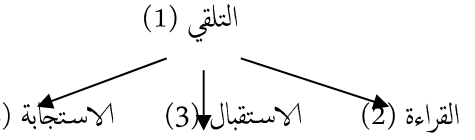

وكل هذه المصطلحات تخص المرسَل إليه إذ إن التلقي، القراءة، الاستقبال والاستجابة تتوقف على فهمه للرسالة وتحليل شفراتها. وبقدر ما يكون الفهم يكون نجاح التواصل بين المرسل والمتلقي.

إن القارئ يساهم بشكل فعّال في عملية إنتاج النص؛ لأن العلاقة بين النص والقارئ لا تسير في اتجاه واحد، فعملية القراءة تسير بطريقة متبادلة من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص، والأبعاد الجديدة التي ينتجها القارئ تتوقف على معطيات النص، أحيانا تكون هذه الأبعاد مستحدثة لا وجود لها في النص، ومن ثم يحس القارئ أو المتلقي بالإشباع النفسي والنصي، فتكون عملية القراءة قد أدّت دورها من جانبين: استقبال النص، وتأثيره في القارئ.[19]

ونلمس هذين الجانبين عند متلقي القرآن والمنصت له، فلقد « أبقى نص القرآن الكريم الجواب مفتوحا، وإن أوحى به خير ما يكون الإيحاء ... أراد أن يبقى للمتلقي دورا وافقا يشكله بنفسه كي يتواصل ويتمعّن ويغذ السير في استجلاء معاني النص ... ونستطيع أن نضع عددا من الأجوبة في صياغات متعددة وفي إطار المعنى السياقي الذي أساسه التصديق بوعد الله، والتحذير من تجاوز حدوده سبحانه.

ومعرفتك بأنواع المخاطَبين وطبائعهم تحصنك من عامل المفاجأة الذي قد يباغتك في كل حين وعند كل مداخلة؛ فلا بد أن تراعي ذلك كلما تدخّل أي شخص، وهذا سيساعدك أيضا على أن تكون مستمعا مثاليا في حالة حضورك لمحاضرة معينة أو مداخلة ما، وعليك أن تحرص على:

- شدّ انتباه مستمعيك بكافة القنوات التواصلية المتاحة.
- أن تحقق من مدى فهم مستمعيك لخطابك.

- أن تحافظ على النظام وآداب الحوار حتى لا يكون هناك شغب أو بلبلة تفسد عملية التواصل.[20]

أصناف المخاطَب:

هناك عدة أصناف من المخاطَبين وعلى أحوال كثيرة ومتنوعة منها:

مراعاة مقتضى الحال: فإذا نظرنا إلى مراعاة مقتضى الحال نجد أن البلاغيين العرب صنفوهم إلى أصناف ثلاثة [21]:

المخاطبَ الخالي الذهن والميول الإيجابي: وهو المخاطَب الذي له استعداد أو ميل إيجابي لتقبل ما يقال، وهذا لا يعني أن المخاطَب لا يفكر ولا يحلل أو لا يدرك ما يلقى إليه؛ وإنما لا يفكر في براهين أو حجج مضادة لما يلقى عليه، وهذا ما نلمسه في الخطاب الديني؛ إذ إنه ساد بين متلقين مسلمين لم يكونوا بحاجة إلى دعوة عن طريق المحاجة، ومن أمثلة ذلك وصية أبي بكر الصديق لأسامة ــرضي الله عنهما ــ وجيشه حين قال: «أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا، ولا تغلوا، و لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا إمراة، ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا إلاّ لمأكلة»[22] وهكذا جاءت خطبته بهذه الطريقة حسب نوعية مخاطَبيه، وقد أحسن التأثير فيهم بالنظر إلى حالتهم (الاستعداد للحرب) ولما رأى منهم ميولا إيجابيا و من نزعة إلى تقبل كل ما يقول .

المخاطَب المتردد الشاك: ترى الدراسات التي اهتمت بأحوال المتلقي ولاسيما في الخطابة الدينية أن المستمع إذا وضع موضع المتناسي لما تعلّم أو الغافل، فتلزمه خطابة وعظية تعليمية تشتمل على الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. فبعض الأمور الدينية أو النبوية تبدو بديهية مما تسمح بتدعيم الترابط الاجتماعي بين الأفراد؛ ولكنها قد تبدو قابلة للاندثار والزوال في حالة ما تمّ إغفالها أو التقصير في أدائها من طرف الأفراد.

وعلى سبيل المثال نأخذ خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع، حيث سعى إلى وعظ وتعليم مخاطَبيه فوضعهم موضع التردد والشك، وذلك لما توقعه من اضطراب أحوالهم بعده فقال: " فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"، فهذا التذكير جاء لخوف الرسول ﷺ من غفلة القوم بعده وسريانهم في أمور دنياهم ونسيانهم لآخرتهم، فخطبته جاءت بعد أن أكمل للناس دينهم حتى يقرر بعض المبادئ التي دعت الحاجة إلى تأكيدها والإشهاد عليها قبل وداع القوم.

المخاطَب المنكر الجاحد: وهو الذي له وجهة نظر مخالفة جاحدة لما يلقيه الخطيب؛ أي من الصنف الذي يتطلب إقناعه ببرهنة، فيقتضي الأمر الاعتماد على الحجج العقلية والنقلية من أجل إقناعه، ويتم ذلك حسب ثقافة وإيديولوجية المخاطَب؛ فالخطب التي يطلبها هذا النوع من الشخصيات هي الخطب الحجاجية أو المناظرات المذهبية؛ لأنها تقوم على إقناع كل فريق بالحجج والبراهين بهدف البحث عن الحقيقة والانتصار للمذهب أو الفكرة التي تبناها كل طرف، وهذا ما حدث لكفار قريش خاصة ولمن ارتد من المسلمين فيما بعد.

وأصبح هذا الأمر واضحا في العصور التي تلت عصر الخلفاء؛ حيث ساد فيها الصراع ما أدى إلى اختلاف المخاطَب من قبضة الخطيب، فأصبح مترددا شاكّا - وفي بعض الأحيان منكرا - لما يقال. وهكذا نجد أن بناء الخطاب يختلف باختلاف المتلقين الذين تعرض عليهم، فكلما كان ميولهم واستعدادهم أكبر لتقبل ما يقال قلت الحجج والبراهين المكوّنة للخطاب، وكلما زاد استنكارهم لما يقال زاد الترغيب والترهيب أما الجحود والمخالفة فلا تقابلها إلا المحاجة وهذا ما يتطلب خطابة حجاجية.

مراعاة حال المخاطَب الطبقية: إذا نظرنا إلى حال المخاطَب من حيث ثقافته وطبقته الاجتماعية نجد صنفين: العامة (العوام) والخاصة (الخواص)؛ فأول ما ينبغي للمخاطِب أن يحدده ويأخذه بعين الاعتبار قبل بناء خطابه هو هوية مخاطَبه السوسيوثقافية ونوعيته.

وقد دقق "الجاحظ" في معنى العامة وميزه عن معنى الناس؛ فالعامة تعني طبقة وسطى تتألف من كل المكونات الاجتماعية التي لها كفايات الإقبال على العلم والأدب، فهي لا تكون إلا في أمة، والأمة هي كل جماعة بشرية تتصف بالتحضر والتمدن، وفي هذا المعنى يقول:« وإذا سمعتموني أذكر العوام، فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ... وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب وفارس والهند والروم، والباقون همج وأشباه الهمج، وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا»[23].

أما الخاصة فهي الطبقة العليا في المجتمع تالف من الأسياد والملوك والخلفاء والوزراء والكتّاب ورجال الأدب والأمراء والقضاة والعلماء وهذا ما قصده "بشر بن المعتمر" (210هـ) في صحيفته التي ألقاها إلى "إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني" الخطيب « الذي كان يعلم فتيانه فن الخطابة ،فتوقف "بشر"، فظن "إبراهيم" توقفه ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال" بشر":"اضربوا عما قال صفحا،واطووا عنه كشعا "، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتمنيقه، وقال:" فكن في ثلاث منزل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[24].

فيدل سياق هذا التعريف على وجود منازل في الكلام البليغ، فمخاطبة طبقات المجتمع ليست على منوال واحد، بل كل طبقة لها منزلتها الخاصة في التبليغ، فكل فرد من أفراد المجتمع - على الرغم من وجود لغة واحدة - لابد أن يخاطَب على حسب مستواه الثقافي بشكل عام.

وعليه يكون خطاب المرسِل ذا فعالية وتأثير في مخاطَبه إذا أخذ بعين الاعتبار خصائصه وأحواله وهويته السوسيوثقافية، فالخطاب الموجه إلى العامة غير الموجه إلى الخاصة؛ لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، والخاصي إذا خاطبته بألفاظ سوقية أو غير مناسبة لهويته أو مرتبته كان ذلك منك جفاء تستجلب به أسباب الفشل في الاستمالة والإقناع [25].

مراعاة حال المخاطَب الذهنية: وهنا على المتكلم أن يأخذ بعين الاعتبار كفايات مخاطَبه الذهنية لما يبني خطابه؛ فغاية هذا الخطاب هي الإقناع والاقتناع. بحيث يكون واضحا قابلا لفهم أخذا بكفايات المخاطَب اللغوية والذهنية.

وقد يشدد البلاغي على الإفهام حتى يأخذ بعين الاعتبار التفاوت الموجود بين المخاطَبين؛ لأن كلا من هؤلاء له كفاياته الذهنية والعقلية والفكرية الخاصة به، ومن ثم فإن الإفهام يكون على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص[26].

وهذا التشديد على الإفهام لا ينفي خصوصية بعض الخطابات، فإذا كان هناك نوع من الخطاب «لا يفهمه حقّ فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة» [27].

وحسب الجاحظ أن الخطاب الإقناعي يقوم على مبدأين أساسيين[28]:

- أن الإقناع يعني التوجه إلى العقل، والعمل من أجل إفهام المخاطَب.

- أن العقل ليس شيئا مطلقا؛ بل هو محدد بمحددات لغوية وذهنية تتفاوت من مخاطَب إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى، وهذا التفاوت هو الذي ينبغي أن يأخذه المتكلم بعين الاعتبار.

وتكمن قيمة الخطاب في البيان الذي هو «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع على حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[29].

مراعاة الحال النفسية الانفعالية: تختلف طبائع الناس باختلاف نفسياتهم وانفعالاتهم، ومن هنا لابد للمتكلم أن يضع العنصر النفسي في مركز اهتمامه وعنايته، فإذا «ورد خطابه على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسّه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عمّا يضادّه ويخالفه»[30].

فعلى صاحب الخطاب أن ينتبه إلى قدرة المخاطَب على التحمل، وضرورة أخذ طاقته النفسية بعين الاعتبار وتجنب كل ما يؤدي إلى الاستثقال والملل؛ إذ إن «للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه»[31].

كما أن المتكلم يستعين بالتنويع والتنقل بين الأشكال والأبواب ليجعل العنصر النفسي الخارجي يتدخل في تحديد بناء النص وشكله، كما هو الحال عند الشاعر حين يبدأ بوصف الإبل وذكر القفار، ثم يدعوك بعد ذلك إلى المدح أو غيره، أو يخرج بمخاطَبه من نسيب إلى مدح، وقد يعود إلى ما كان فيه

من النسيب ثم يرجع مرة ثانية إلى المدح، أو يتخلص من معنى إلى معنى، ثم يعود إلى الأول، ويأخذ في غره، ويرجع إلى ما كان فيه [32].

وضمن مراعاة الحال النفسية الانفعالية اهتمام المتكلم بالآثار النفسية للتصوير والتخييل، إذا ما عرف كيف يبرع « في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم. والتخييلات التي تهزّ الممدوحين وتحركهم ... تعجب وتخلب، وتروق وتؤنّق، وتدخل النفس من مشاهدها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه»[33]، والتمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها.

خاتمة:

إن مخاطبة المتلقي لابد أن تسبقها معرفة بأحواله وظروفه، واختيار الأسلوب الملائم الذي يوصل الرسالة إلى ذهنه، أي أن المتكلم قبل أن يرسل كلامه، يتأمل مقدرة المتلقي على تلقي هذه الرسالة، «فكلام الخطيب ينبغي أن يكون ملائما لسامعيه، ومعنى ذلك أنه لابد أن يعرف أحوالهم النفسية، حتى يجعل خطبته مؤثرة فيهم ، وكأنه يوجب على الخطيب المعرفة الدقيقة بعلم النفس، فلابد أن يعرف طبائع من يستمعون إليه، حتى يطابق بينه وبين كلامه، كما يطابق بين الموضوع الذي يتحدث فيه »[34]. وهذا يتوقف على جملة من الأمور منها فصاحته، واختيار الألفاظ التي ليس فيها غرابة عن آذان السامعين والأسلوب الذي تصاغ فيه تلك الألفاظ. أي أن يكون له نصيب من البلاغة في الكلام. يذكر الجاحظ ما حكاه عن الإمام إبراهيم بن محمد بقوله: كفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. ثم يضيف الجاحظ: أما أنا فأستحسن هذا القول جدا»[35]

وخلاصة القول فإن مراعاة أحوال المخاطَب في شتى الأصناف لها أهمية بالغة وحرص كبير من قبَل صاحب الخطاب سواء أتعلق الأمر بما الحالة الذهنية أم الاجتماعية أم النفسية أم الثقافية؛ لأنه من دون ذلك لا يمكنه أن ينجح في استمالته وإقناعه. كما أن مراعاة حال المخاطَب بهذا المعنى تعنى أن العناصر الخارجية المتعلقة بالمخاطَب وخصائصه عناصر تؤثر في تكوين النص وبنائه، وفي شكل النص ولغته، ولا تقتصر هذه العناصر على المخاطب فحسب؛ بل تتعدى إلى عنصر آخر أشمل وأوسع وهو المقام.

بن فريحة الجيلالي

الهوامش:

1)- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، عالم الكتب،ط3، (1998/1418) ص 32.

*)- " الإبداع سمة الشاعر المبتكر، والكاتب المقتدر، وقد وضعه البلاغيون والنقاد في قمة الإنتاج، وإن كان قليلا. إذا قيس بغيره، وقد عرفه ابن رشيق قائلا: « الإبداع هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية، حتى قيل له بديع وإن كثُر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد وجاز قصب السبق»" (المعجم المفضل في علوم البلاغة : البديع، والبيان والمعاني، د. إنعام فوّال عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، (1996/1417)، ص 18.)

2)- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ناشرون الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط1، (1994)، ص .221

3)- ينظر: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق، د.حسن شحاتة، الدار المصرية اللبنانية ، ط4 ، (رجب 1421/ أكتوبر 2000) ص .75

4)- ينظر: كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال، أحمد ماهر، الدار الجامعية، (2006)، ص 29.

5)- ينظر: نظام الارتباط والربط في تركيب العربية، مصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، ط1، (1997)، ص 19.

6)- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني عبد القاهر تصحيح وتعليق: السيد محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، ط2، (1331 هـ)، ص .408

7)- مفتاح العلوم، السكاكي، أبو يعقوب يوسف، منشورات الكتب العلمية الجديدة، بيروت لبنان، ص .81

8)- ينظر: كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال، أحمد ماهر، الدار الجامعية، (2006)، ص ص 27،28 .

9)- تعلم وتعليم اللغة العربية وثقافتها، المصطفى بن عبد الله بوشوك، ص .122

*)- هناك فرق بين السمع والاستماع، فالسمع hearing يتعلق بوظيفة الأذن في تلقي المثيرات الصوتية، أما الاستماع listening فيتعلق بمدى انتباه الفرد إلى المعاني المتضمنة فيما يقوله المرسل ، ويطلق أحيانا على عملية الاستماع بالإنصات. ويمكن القول إن كثيرا من الناس ليسوا بمستمعين جيّدين، والدليل على ذلك أنه بمجرد الانتهاء من سماع حديث استغرق عشر دقائق فإننا لا نتذكر إلا نصف ما قيل، وبعد عدة أيام نكون قد نسينا تماما ثلاثة أرباع الحديث، والأسوأ من ذلك أننا دائما ما

ننسى ما وراء الحديث من معان وأحداث. (ينظر، كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال، أحمد ماهر، ص ص 161،162).

10)- المقدمة، ابن خلدون عبد الرحمن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، (2003/1424). ص .566

11)- دراسات وتعليقات في اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، (1994/1414)، ص 231.

12)- ينظر: كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال، أحمد ماهر، ص162.

13)- البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، (د، ط)، (1999). ص .293

14)- سورة غافر، الآية .28

15)- ينظر: استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، (1999)، ص ص 16 ، .17

16)- سورة الزمر، الآية .73

17)-استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، ص .16

18)- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص .235

19)- ينظر: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسين بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط1، (1997)، ص 07.

20)- ينظر، التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي، عز الدين الزياتي، دار القلم، ط1، (2008)، ص 186.

21)- ينظر، الاتصال الخطابي وفن الإقناع، شعبان كريمة أحسن، دار أسامة، عمان، ط1، 2015، ص 242 - 246

22)- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر بيروت، (1407هـ-1987م) 46/4.

23)- البيان والتبيين، الجاحظ، تقديم وشرح: علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1 ، (1998/1408)،137/1

24)- المصدر نفسه، 129/1.

25)- ينظر، بلاغة الخطاب الإقناعي، حسن المودن، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، (2014/1435)، ص 294.

26)- ينظر، المرجع نفسه، ص302.

27)- البيان والتبيين، الجاحظ، 84/1

28)- بلاغة الخطاب الإقناعي، حسن المودن، ص 300

29)- المصدر السابق، ج1، ص 76.

30)- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - صيدا- لبنان، 1986. ص306 .

31)- البيان والتبيين، الجاحظ، 99/1 .

32)- ينظر، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981. 1/ 234-240 .

33)- أسرار البلاغة، تح: هـ. ريتر، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3 ، 1683. ص 317

34)- في النقد الأدبي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1966. ص 15.

35)- ينظر: العمدة، ابن رشيق، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، (1982)، 217/1.